رحمة

في مساءٍ هادئ من أمسيات الشتاء، اجتمعت العائلة كلها في بيت زياد وسما احتفالًا بعيد زواجهما الأربعين، البيت الذي شهد البدايات الأولى، وكبر بين جدرانه الحب قبل الأولاد، ثم امتلأ لاحقًا بأصوات الأحفاد وضحكاتهم، كانت الأنوار الدافئة تملأ المكان، وصور الرحلات القديمة معلّقة على الحوائط، بينما تنساب في الخلفية أغنيات أم كلثوم التي رافقت رحلتهما الطويلة، من "إنت عمري" إلى "سيرة الحب" و"أمل حياتي"، وكأن كل أغنية تحفظ فصلًا من عمرهما معًا

جلس زياد في مكانه المعتاد يراقب الجميع بابتسامته الهادئة، بينما كانت سما تتحرك بين أولادها وأحفادها كعادتها، تُصلح ياقة هذا، وتُطعم تلك، وتسأل الجميع إن كانوا قد أكلوا جيدًا، رغم اعتراض أبنائها الدائم: "يا ماما اقعدي بقى النهارده يومك"، لكنها لم تعرف يومًا كيف تتوقف عن الاهتمام بمن تُحب

أما الأبناء، سميرة وسمير وآدم، فقد أعدّوا مفاجأة كبيرة لوالديهما، شاشة ضخمة تعرض صور الرحلات القديمة، بداية من شهر العسل في الإسكندرية، مرورًا بمشاوير شارع المعز، وفسح النيل، وحتى الصور البسيطة أمام عربية الفول بعد منتصف الليل، تلك الصور التي جعلت سما تضحك من قلبها وهي تتذكر كيف كان زياد يُصرّ دائمًا أنه "يعرف طريق مختصر"، ثم يضيعهما لساعتين كاملتين

وفي ركنٍ من الصالة، كان الأحفاد يركضون حول جدّهم، بينما يحاول زياد أن يبدو وقورًا أمامهم، لكن هيبته تسقط فور أن تناديه سما من بعيد: "زياد... حاسب العيال"، فيرد بسرعةٍ تلقائية: "حاضر"، فتتعالى ضحكات الأبناء الذين اكتشفوا منذ سنوات طويلة أن والدهم لم يربح أي نقاش زوجي منذ الثمانينيات تقريبًا

ومع اقتراب نهاية السهرة، خفّت الأصوات قليلًا، وبدأت أم كلثوم تغني "ودارت الأيام"، فأمسك زياد يد سما بهدوء، ونظر لها بنفس النظرة القديمة التي لم تتغير رغم مرور أربعين عامًا، ثم قال بصوتٍ خافت:

"تخيّلي... لسه لحد دلوقتي أول حد بحب أحكيله يومي هو إنتِ"، فابتسمت سما، تلك الابتسامة نفسها التي أحبها شابًا، وعرف وقتها أن بعض القلوب لا يكبر أبدًا، مهما مرّ عليها الزمن.